بل عمدوا إلى الدسّ الرخيص وتحريض أهل السلطة على زميل لهم [هو كاتب هذه المقالة - **الآداب**] لم يكن همُّهُ سوى الحفاظ على كرامة المثقفين ودورهم الريادي الذي أهَّلَهم منذ بداية القرن لأن يقودوا مع جبران ونعيمة والريحاني حركةَ النهضة العربية المعاصرة.

إنّ احتجاج هؤلاء بعلاقة التكامل التي يجب أن تقوم بين الثقافة والسياسة لا يغيِّر شيئاً من جوهر الأمر. ذلك أنّ المسألة المطروحة ليست في مبدإ العلاقة بين المثقّف وأهل السلطة بل في شكل هذه العلاقة وكيفيّتها... إذ يحق للمثقّف والمبدع أن يكون مؤيّداً لهذه السلطة أو تلك، كما يحقّ له أن يختلف معها وينقضها كليّاً؛ وقد تولّى الكثير من المثقفين مناصبَ رئيسيّةً في بلادهم كما حصل لأندريه مالرو في فرنسا أو ميلينا ميركوري في اليونان. لكنّ لهذا الحق شرطين اثنين ينبغي توفّرهما: أوّلهما أن لا يضحّي المثقف بقناعاته الجوهرية من أجل المنصب، وثانيهما أن تكون علاقةُ المثقّف بالسلطة علاقة تكافؤ واحترام وتقدير لا علاقة استزلام وتبعية والتحاق. لقد كان مستغرباً في السجال الدائر أن يكون بعضُ رجال السلطة [السابقة] في لبنان أكثر وعياً من بعض المثقفين فيما يتعلّق بدور المثقّف وتميزه واستقلاليته. ففي حوار متلفز مع الوزير السابق فؤاد بطرس أعلن الوزير أنّ على المثقّفين أن يحاذروا الوقوعَ في حبائل السلطة وأشراكها لأنّهم يشكّلون ضمير الأمّة وخزّانَها النقديَّ وإحساسها العميق بالمستقبل. وإذا كان لا بدّ من علاقة، في رأي بطرس، بين المثقّف والسلطة فيجب أن تكون علاقةً ندّيّة من جهة ونقدية من جهة أخرى.

***

إنّه لمن المؤلم أن نضطر إلى الاستشهاد ببعض المتنورين من أهل السلطة للردّ على المنطق الرثّ والهزيل لمثقفي «الخدمات والإفطارات وحفلات الرعاية والتدشين» الذين فقدوا أدنى مقوّمات الإحساس بكرامة المثقّف وخطورة دوره، في وقت تقف فيه الأمّة عند نقطة الصفر مدافعةً عن مستقبلها بل ووجودها برمته. غير أنّ ما يعزّي المرءَ هو أنّ الصورة ليست قاتمة تماماً، بل ثمّة أقلام مبثوثة هنا وهناك ماتزال تشهد للحقيقة حتى الاستشهاد وتصرّ على اجتراح الأمل من بطن الهاوية.

بيروت

مثقفو البلاط

مقتطفات

- غادر الشعراءُ
- أين؟
- إلى الوليمة
- كلّهم؟
- كلّ الذين عرفتهم!

(سعدي يوسف)

تكاد هذه الأبيات الشعرية الناضحة بالمرارة تختصر المشهد الثقافي الراهن في لبنان. يكفي أن نجيل بصَرنا قليلاً لكي نكتشف عمقَ الهوة التي يؤول إليها الكتّاب والمثقّفون يوماً بعد يوم في وطن تكاد تصبح فيه الكرامة كما الحياة أثراً بعد عين. فمنذ سنوات يتم إلقاء القبض على الوطن قطعةً قطعةً ويتناوب على نهش لحمه التجّارُ والمقاولون والقاتلون بالأجرة وأمراء الطوائف والمشايعون والتابعون من الجَهَلة والأمّيين. منذ سنوات ست يُفرغ البلدُ من مضمونه، ويتحوّل إلى مجرّد امتداد صخريّ لهذا الربع العربي الخالي بعد أن تُسوّى حجارتُه بالرَّمل وحريّته بالوحل وأحلامُه بالتراب الخامل. لقد سيق الجميعُ إلى حظيرة الطاعة بعد أن أبعد من أبعد واغتيل من اغتيل وأسكت من أُسكت بالتهديد حيناً وبملاعق الذهب أحياناً أخرى. خلال ستّ سنوات فقط استطاعت الصحراء أن تعلن انتصارها النهائي وأن تتربّع الطوائفُ فوق مناطقها الصافية كعين الديك، وأن يتمّ ائتلاف المهاجرين والأنصار في هذا العقد الفريد من النفاق السياسي اللبناني بامتياز.

لطالما كان المثقّفون اللبنانيون صمّامَ الأمان الأكثرَ فاعليةً في وجه القمع والقهر ومصادرة الحريّات. ولقد قدّموا خلال الحرب وقبلها العديدَ من الشهداء الذين انتصروا لحرية الكلمة وسقطوا دون أقلامهم في ساحة الدفاع عن كرامة الوطن وأهله (...) غير أنّ هذه المصائر المفجعة لبعض المثقّفين «الطهرانيين» لا تحتلّ سوى جزء يسير من المشهد الثقافي العام في لبنان بينما يكاد مثقفو السلطة يحتلّون ما تبقّى من المشهد. فهذه السلطة لم تقف كسابقاتها موقفاً متجاهلاً أو متعالياً أو لامبالياً إزاء المثقّف، بل حاولتْ بدأب جرّهُ إلى خانتها والعمل لحسابها والإفادة من قدراته في منابرها ومؤسّساتها ووسائل إعلامها المختلفة. وقد استخدمت السلطةُ بعضَ المثقّفين الانتهازيين والأتباع بمثابة أحصنة طروادة أو رؤوس حربة للاستيلاء على بعض المواقع الثقافية الهامّة التي كانت حتى وقت قريب منابر للدفاع عن حرية الفكر والمعتقد.

لقد كان سقوطُ اتّحاد الكتّاب اللبنانيين في قبضة السلطة الرمزَ الأكثرَ تعبيراً عن تخلّي المثقفين اللبنانيين والتحاقهم «بالوليمة»، في حين كانت المؤسساتُ الأخرى للمجتمع الأهلي تذهب في اتّجاه معاكس وتعبّر من خلال نقابات المحامين والأطبّاء والمهندسين عن رفضها لقهر الوطن وإذلاله. في هذه الحرب الضروس على مصير لبنان ومستقبله تلعب النخبُ المميّزة من ذوي الاختصاص والتكنوقراط والمهن الحرّة الدورَ نفسه الذي كان يجب أن يلعبه الأدباءُ والشعراءُ والكتّاب، وتقف هذه النخب وقفةً شجاعة في وجه وحشية النظام السياسي وتخلّفه واستبداده. هذا النظام نفسه هو الذي عمّم البطالة ونشر الفساد وهجّر الكفاءات وضرب أجهزة الرقابة بدءاً من «مجلس الخدمة المدنية» حتى «ديوان المحاسبة والتفتيش المركزيّ». وهو نفسه الذي ضرب الحريات، ورفع الضرائب إلى منسوبها الأعلى، وأقفل بيوت النّاس على أصحابها خشية من انفضاح الفقر وانكشاف الفاقة والجوع. وهو نفسه الذي ارتكب سابقة مصادرة الكتب والمنشورات(...) وهو نفسه الذي يجيء الآن بمجلس نوّاب على شاكلته ومقاسه ويجري انتخابات هي الأكثر تزويراً وازدراءً لمشاعر النّاس في تاريخ لبنان... انتخابات تبدو وكأنّ هدفها الوحيد هو التخلّص من ذوي النزاهة والأكف النظيفة ورموز الاعتراض الذين لا ينحنون ولا يبصمون ولا يحسنون التبريك والتبخير، والتخلّص في الوقت ذاته من المشرّعين والقانونيين وأهل الاختصاص لكي يحلّ محلّهم المقاولون وتجّارُ البناء والأدوات الصحيّة وأثرياء الحرب وتابعو السلطان.

وفي حين أنّ على المثقفين أن يكونوا الصوت والصرخة والضمير، يتحوّلون إلى أبواق في منابر الحاكم وإذاعاته وشاشاته، وإلى منافحين عن سرقاته وارتكاباته وامتيازاته. واحداً بعد الآخر يلتحقون بالبلاطات اللمّاعة على شكل مبشرين أو دعاة أو مستشارين، ويسعون إلى تبرير ذلك بالعقلانية والواقعية السياسية حيناً وباللاجدوى وانعدام الأمل حيناً آخر. مثقفون وأدباء يتمرّغون على أبواب الحاكم بحثاً عن فتات رغيف مغمّس بالذلّ أو منصب ممهور بالعار والمهانة، حتى إذا جلسوا للكتابة راحوا يتحدّثون عن الاعتراض وعن اقتحام السائد وتقويضه، وراحوا يتحدّثون عن تفجير اللّغة وهدمها فيما هم ينحنون إعجاباً للغة الحاكم الركيكة وخطاباته المهلهلة، وراحوا يدّعون الريادة والتغيير والتجاوز، فيما هم يتحوّلون إلى شعراء مأدب وإفطارات وتدشين منجزات وجمعيات واوتوسترادات.

قلّة قليلة فقط هي التي تحفظ للمثقّف كرامته ودوره في هذه المعمعة الهائلة من النفاق والتزلّف وسفح ماء الوجه. (...)

ش.ب. (جريدة النهار ١٤/٩/١٩٩٦)